ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظلوم كفَّار ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطلقتْ من غير استثناء فهى تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير فى الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ[1] ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أى « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبِّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّى ، لذلك قال « ربِّى » ولم يَقُل « يا الله » لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير فى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٠٦] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتَيْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التي تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منّا أن نشرحه ، فـ « بلداً » تعني أن المكان كان قَفْراً[١] ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أي : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدِّدون حاجاتهم ومُتطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أي : ألاّ يوجد به ما يُهدِّد طمأنينة الناس على يومهم العاديّ ووسائل رزقهم .

(١) القفر والقفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرت الأرض : خلت من الكلأ والناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان فى أىّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان فى أىّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذى زرع ؛ ولا مُقوّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذى جاء ذِكْره فى سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثانى مرة ؛ هى دعوة لأمن خاص ؛ ففى غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصطاد صَيْد ؛ ولكن فى هذا المكان هناك أمْنٌ خاصّ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شىء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَس(١) .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثانى ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثانى : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقّق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يُختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس فى الحرم ؟

ونقول : وهل كان أَمْن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعىّ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أنْ يُعصى .

وقوله سبحانه :

﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم فى أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفىّ والأمر الكونىّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ واجْنُبْنِى وبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَىٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبى المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أنْ يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفى منه سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٣٦) ﴾ [النساء]

وهو أمْر بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وفى هذا القَوْل ضراعة إلى المُنعم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن[1] ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجَرِ فقط والتى خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرج بنَا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلى ؛ وشرك خفيّ . والشرك الجليّ أن يعبدَ الإنسانُ أيّ كائن غير الله ؛ والشرك الخفيّ أن يُقدِّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

---

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تُعمل وتُنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب - مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلَّفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمَّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله فى الخَلْق ؛ فلابُدّ لنا من أن نتخلَّقَ بأخلاق الله . وعلينا ألاّ نختار أىَّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا إنْ كان كُفْءً لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله ﷺ :

« إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظر الساعة » . قال السائل له عن موعد

---

(١) الكلمات : جمع كلمة ، وهى هنا أحكام الدين وتكاليفه . [القاموس القويم ٢/١٧٣] وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « الكلمات : الشرائع والأوامر والنواهى » .

قيام الساعة : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّد[1] الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] .

ذلك أن إسناد أىِّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أىِّ أمر لأى إنسان أن يكون بهدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة فى السوء ؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتقان إلى غيره ؛ ويتفشَّى السوء فى المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَثلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا فى السعودية ؛ ورأوْا أن يد السارق تُقطع ؛ لم نجد منهم مَنْ يسرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أنْ يضعَ عقوبةً قاسية ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تقعَ الجريمة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضُّر : كيف يقول القرآن :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وحين تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

---

(١) وُسِّد : أُسند ، وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : وسد) : « يعنى إذا سُوِّد وشُرِّف غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذى دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

كان قد نجح فى اختبار الله له ، ونجح فى أداء ما أُسند إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بنوة لَحْم

ودمٍ ؛ بل بُنُوة اتباع واقتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال لنوح عن ابنه[1] :

﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٤٦) ﴾ [هود]

ونعلم أن رسول الله ﷺ قد قال عن سلمان الذى كان فارسياً : « سلمان منا آل البيت »[2] .

وفى هذا تأكيد على أن بنُوّة الأنبياء هى بنُوّة اتباعٍ واقتداء .

ويستكمل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام ؛ فنجد وَعْى خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٤٦) : « هذا هو الابن الرابع ، واسمه يام وكان كافراً » . قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] ثم سأل نوح ربه سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذى غرق فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود].

(٢) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السُّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضل أحداً[1] ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية ؛ ولا تكليفَ يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامى « على حَلّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذه تعقيباتٌ فى مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرّة يعقُبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

ومرّة يعقبها :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القمّة ؛ مثل مَنْ يدّعى أنه إلهٌ ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقولَ لهم هو ذلك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٦) : « لما كانت - الأصنام - سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل » .

وقد قال عيسى ـ عليه السلام ـ بسؤال الحق له :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى قَوْل عيسى عليه السلام :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القَوْل :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

وهكذا تأتى العِزّة والمغفرة بعد ذكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسبها العزّة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .

وقوله الحق :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمُقدِّمات الصدرية فى الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذى أوحى إلى عبده القرآن :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

فما الذى يجعله يقول فى آية :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وفى آية أخرى :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

مع أن السياق المعنوىّ قد يُوحى من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذى يجعله سبحـانه يقول فى آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

ويقول فى آية أخرى بعد أنْ يُذكِّرنا بنِعَمِ الله بنفس اللفظ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك قوله :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [عبس]

ثم قوله فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لهـا حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكُلُّ ذلك يأتى تصديقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

لأن الحق سـبحـانه وتعالى شـاء أنْ يُنزل القرآن على رسـوله ، ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أو مكان آية من الآيات أبداً ، ذلك أن الذى قال :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ (١) رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ونفهم من التعبير فى هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا أملَ فى زراعتها بمجهود إنسانى ، وليس أمام تواجد الرزق فى هذا المكان إلا العطاء الربانى . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْثٍ من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهىّ ، فسبحانه هو الذى أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٩) : « قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أى : يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال ، وقيل : محرم على الجبابرة ، وأن تُنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقه » .

فهذا يعنى حيثية الرِّضـا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفَّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبِّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المـثل فى حكاية الرجل الذى قـابله الأصمـعى[1] عند البيت الحرام ، وكـان يقول : « اللهم ، إنِّى قـد عصيـتُك ، ولكنى أحب مَنْ يطيعك ، فـاجعلها قُرْبة لـى » . فقال الأصمـعى ما يعنى أن الله لا بُدَّ أن يغـفر لهـذا الرجل لحُسْن مـسألتـه ، ذلك أنه رجل قد فـرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالـتكليف عندما يقـوم به أىُّ إنسان ؛ فـذلك أمر فى صـالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

أى : أن كُلاً منّا يحشر نفسـه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبَّل من واحد فندخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألاّ تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افـرح به ؛ لأن فرحَك بالمطيـع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ الـتكليف ، رغم أنك لا تقـدر على نفسك ، وفى هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقـد قال إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ عن الوادى الذى أمـره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زَرْع ، وقد

---

(١) هو : عبدالملك بن قـريب الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبـصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغـة والشعر والبلدان ، كان كثير التطواف فى الـبوادى . توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/١٦٢] .

جـاء هو إلى هذا المكان لِيُنفِّذ تـكليف الحق سبـحانه له ؛ لدرجـة أن زوجتـه هاجر عندما عـلمت أن الاستقـرار فى هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذنْ لن يضيعنا »(١) .

ويُقـدِّم إبراهيم عليـه السلام حـيثـيـات الإقامـة فى هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجىء الناس إلى هذا المكـان لن يكون شهوةَ سيـاحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قـد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلابُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود فى مكان ليس فيه من أسباب الحـياة ولا مُقوِّمـاتها شىء ؛ ولكن الحق سبحـانه قد أمر بذلك ؛ فلابُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المأكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفئـدة جمع « فـؤاد » ، وتُطلَق على الطائفـة ؛ وعلاقـة الفؤاد

---

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السـلام أتى بهاجر وابنه الـرضيع إسماعـيل إلى مكة . التى لم يكن فيهـا أحد وليس بها ماء ، فوضـعهما هنالك ، ووضـع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقـاء فيه ماء ، ثم تركـهما وذهب ، فقـالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتـركنا بهذا الوادى الذى ليس فيـه إنس ولا شىء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتـفت إليها . فقـالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيِّعنا . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) .

بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة[1] .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معَانٍ متعددة ، فلك أنْ تقولَ « هَوَى » أو تقول « هَوِى » ، فإنْ قلت « هَوَى يهوي » من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه في السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : « هَوِى يهوَى » فهذا يعني أحبّ ، وهو نتيجة لمِيْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهم في مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملي في قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد : لو قال : « أفئدة الناس » لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٣٧١١) ، والسيوطي في « الدر المنثور » (٥/٤٨) .

(٢) جبا يجبي المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكي وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة « يُجْبى » تدل على أن الأمرَ فى هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية ؛ وأمْر مفروض ، فتكون فى الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه ؛ فتجد مَنْ يقول لك : إن هذا يخصُّ مكة المكرمة ؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد فى كلمة :

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فأنت فى مكة تجد بالفعل ثمرات كل شىء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمةً من كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفى عصرنا الحالى نجد ثمرات النموِّ الحضارى والعقول المُفكِّرة وهى معروضة فى سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس فى كل أوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدى فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ وملْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتى بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]